المؤثرات الثقافية الدينية في مملكة سنار الإسلامية

د. سلوى التجاني فضل جبرالله – أستاذ مساعد – جامعة الملك خالد

مستخلص:

يشكل قيام سلطنة الفونج الإسلامية في مطلع القرن السادس عشر – منعطفاً تاريخياً مهماً في تاريخ السودان، فبقيامها يبدأ الميلاد المؤسسي لسيادة العقيدة الإسلامية، وغلبة الثقافة العربية، وقد هدفت هذه الدراسة إلى بيان مراحل تطور التعليم وتشجيعه، وجعله جزءً لا يتجزأ من الدين في مملكة سنار الإسلامية، بالإضافة إلى عرض البعد التاريخي للهجرات العربية، وأثرها في تشكيل الثقافة العربية في السودان، والتي كانت عبر منافذ مختلفة من أجل البحث عن سبل العيش والاستقرار، ونشر الثقافة العربية والإسلام في السودان منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وازدادت بتوقيع معاهدة البقط مع النوبيين في دنقلا عام 31هـ؛ وذلك لأسباب دينية فضلاً عن العامل الاقتصادي، والتي استمرت لأكثر من 6 قرون، ولكنها أصبحت الأساس الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في السودان، بالإضافة إلى توضيح مدى إمكانية مملكة الفونج من تهيئة المناخ الملائم للنهضة الفكرية والعلمية؛ وذلك بإتاحتها الفرصة لرواد الثقافة والعلم زيارة السلطنة، والاقامة فيها.

جاءت هذه الدراسة للتعرف على جذور المؤثرات العربية بين السودان ودول الجوار، والوقوف على التوجه الإسلامي الذي غلب على الأنظمة الدينية والثقافية والعلمية في مملكة الفونج، وأثره في إثراء الحركة الفكرية بمجموعة العلماء والفقهاء الوافدين لنشر الثقافة، والحضارة العلمية والإسلامية، والوقوف على الطرق الصوفية في مملكة الفونج، ومعرفة مدى تأثيرها العلمي في مملكة الفونج الإسلامية.

مثلت مملكة سنار مركزاً مهماً من المراكز الإسلامية العربية، وظهر التوحيد الفكري في كل أنظمة الدولة التي بذلت جهودها لنشر مبادئه وتعاليمه، وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي والوصفي التحليلي، وتتلخص أبرز النتائج لهذه الدراسة في ظهور المدارس القرآنية، وكان المجتمع يهتم بهذه المدارس والمؤسسات الدينية؛ وبالتالي أصبح تعليم اللغة العربية مفتاحاً للعلم والمعرفة، ولارتباط ذلك بالإسلام الذي حث على طلب العلم، وإضافة لذلك شجع العلماء والفقهاء والشيوخ وحكام العهد السناري على التعليم، ولقد ساهم كثير من الدعاة والتجار والعلماء والفقهاء الذين عادو من الحجاز ومصر، وغيرهم من الذين يعبرون بهذه البلاد في طريقهم إلى الحج ذاهبين، أو عائدين، وغيرهم من العلماء، ورجال الطرق الصوفية الذين بذلوا حياتهم في نشر الإسلام والثقافة

الإسلامية العربية، وقد خلصت الدراسة إلى عدة توصيات أهمها: الاهتمام بالحياة العلمية في مملكة الفونج، واثارها الأجتماعية، والوقوف على أهمية العلماء والفقهاء، ودورهم في نشر الثقافة العربية لأسلامية.

الكلمات المفتاحية: التعليم، الخلوة، المدارس، العلماء، الصوفية.

Abstract

The emergence of the Islamic Fung Sultanate at the beginning of the sixteenth century constitutes an important historical turning point in the history of Sudan. With its establishment begins the institutional birth of the supremacy of the Islamic faith and the predominance of Arab culture. To show the historical dimension of Arab migrations and their impact on the formation of Arab culture in Sudan, which was through various outlets in order to search for ways to live and settle and spread Arab culture and Islam in Sudan since the era of Caliph Omar bin Al-Khattab, may God be pleased with him, and increased by signing the Treaty of Al-Baqt with the Nubians in Dongola The year 31 AH, for religious reasons as well as the economic factor, which lasted for more than 6 centuries, but it became the basis that led to the spread of Islam and Islamic culture in Sudan, in addition to clarifying the extent of the ability of the Fung Kingdom to create an appropriate climate for intellectual and scientific renaissance by providing the opportunity for cultural and science pioneers to visit Sultanate and residence in it.

This study came to identify the roots of Arab influences between Sudan and neighboring countries, and to identify the Islamic trend that dominated the religious, cultural and scientific systems in the Fung kingdom and its impact on enriching the intellectual movement with the group of scholars and scholars coming to spread culture and scientific and Islamic civilization, and stand on the Sufi ways in the Fung Kingdom The extent of its scientific influence on the Islamic kingdom of Fung.

The Kingdom of Sinnar represented an important center of Arab Islamic centers and the emergence of intellectual unification in all state systems that made efforts to spread its principles and teachings. The study relied on the historical and descriptive analytical method. Teaching Arabic is a key to knowledge and knowledge, and to link this with Islam, which urged seeking knowledge. In addition, scholars, jurists, sheikhs, and rulers of the Sinari era encouraged education, and many preachers, merchants, scholars, and jurists who returned from Hijaz and Egypt, and others who cross this country on their way, have contributed. To the pilgrimage going or returning, and other Sufi scholars and men who gave their lives in spreading Islam and Islamic Arab culture. The study concluded several recommendations, the most important of which is concern for the scientific life in the Fung kingdom and its social effects, and to determine the importance of scholars and jurists and their role in spreading the Arab culture of Islam.es n

تمهيد:

تمكن الفونج في بداية القرن السادي عشر الميلادي من تأسيس مملكة إسلامية قوية بعد إنهيار الممالك المسيحية، واتساع ملكهم حتى أصبحت تضم عدة إمارات؛ تمتد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، كان قيام مملكة الفونج الإسلامية ميلاد دولة عربية إسلامية ذات اتجاه فكري محدد نحو الإسلام، والحضارة الإسلامية، وانتماء عضوي للكيان العربي الإسلامي، ويمكن أن نعدَّ قيام دولة الفونج و بقية الممالك الإسلامية في السودان الميلاد الحقيقي؛ لغلبة الثقافة العربية الإسلامية في السودان، لقد جاءت الحركة الفكرية في السودان تعبيراً عن هذا الاتجاه الفكري، ونتاجاً طبيعياً لغلبة التيار الإسلامي العربي، وثمرة لكافة الجهود التي بذلت في هذا السبيل؛ وبالتالي احتلت سنار مركزاً مهماً من مراكز الثقافة والعلوم الإسلامية بين دول العالم الإسلامي.

أصبحت اللغة العربية بتأسيس أول مملكة إسلامية على البلاد عام 910هـ /1504م هي اللغة الرسمية في الدواويين والمحاكم الشرعية، فضلاً عن كونها اللغة الثقافية، ويمثل القرن العاشر الهجري (السادس الميلادي) بداية العهد السناري عصر انتقال من سيادة المسيحية، والوثنية إلى سيادة الإسلام، وانتقال من تخبط في أحكام الدين وتلمس في أصوله إلى استقرار واطمئنان، ويمكن القول إن الحجاز ومصر قد غرستا البذور الأولى للثقافة الإسلامية في السودان، بالإضافة إلى سهولة المواصلات بين السودان ومصر بطريق القوافل والنيل، لم تنقطع الصلات الثقافية بين السودان ومصر والحجاز بانقطاع طبقة المخضرمين، بل استمر وفود بعض العلماء من مصر والحجاز والمغرب وغيرها، كما زادت رحلة السودانيين إلى تلك البلاد طلباً للعلم.

الهجرات العربية:

وجود القبائل العربية فيما بين الساحل الغربي للبحر الأحمر، ونهر النيل – أمر قديم سجله سترابون Strabo الجغرافي اليوناني 85ق.م 25–م في كتابه « الجغرافيا «، وسجله أيضاً عالم الطبيعة الروماني بيلنوس (Plinus 23م/ 79م في كتاب « التاريخ الطبيعي « ذاكراً أن القبائل التي سكنت – آنذاك – شرق النيل عند أسوان إلى مروى قبائل عربية.

وقد ذكر البروفيسور عبدالله الطيب أن نيلنا من معادن العروبة القديمة، خرج منه قوم غازون، وتجار فأقاموا عمارات وقرى في طريق الصحراء العابر جزيرة العرب من مغربها إلى مشرقها، وفي شمالها وجنوبها، واجتمع منه خلق كثير يجتز بهم غني العمران والتجارة، ثم متى غار الماء، أو وقعت كارثة، أو وباء – انفض الناس عن مكان العمران، أو هلكوا فيه، فمن هؤلاء من يعود إلى أرض النيل، أو يقدم إليه، وهو من بلاد أخرى بعيداً من يعود من

الناس فيظن أن هذه هجرة ذات تأصيل عربي، والحقيقة أن بلادنا في العربية أصل[1].

يدل ذلك على أن أول من بدأ حركة نشر الثقافة العربية هؤلاء العرب النازحون، الذين رحلوا إلى السودان في أزمان مختلفة طلباً لحضرية المرعى، وجرياً وراء الرزق، ونزلوا في المناطق الصالحة للسكن، وفدوا إلى السودان عبر المداخل الآتية من الشرق ونزحت بعض القبائل العربية وسكنت على الساحل الشرقي المقابل للجزيرة العربية، أو تجاوزته إلى السودان الأوسط والسودان الغربي أيضاً، من الشمال عن طريق وادي النيل، وهو الذي أدى إلى تكوين القبائل العربية التي تعيش حول نهر النيل في شمال السودان ووسطه، من الشمال الغربي عن طريق الطريق الليبي، ولعله لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلى بعد الإسلام[2].

وتستدل من ذلك أن العنصر العربي كان غالباً على صحراء مصر الشرقية والنوبة من أوائل النصرانية؛ لأن الرومانيين كانوا يجرون الجنود لرد هجمات العرب، والعرب يهزمونهم.

هجرات ما بعد الإسلام:

تعزز الوجود العربي في أعقاب الفتح الإسلامي لمصر، وأفريقيا، وبلاد المغرب في سنة 641م؛ حيث هاجرت مجموعات متلاحقة من القبائل العربية، واتخذت من الأقطار المفتوحة مواطن لها، وتشكلت هذه الهجرات من عشرات القبائل والبطون على أن أبعد هذه القبائل أثراً في تعريب بلاد السودان وإعطائها ملامحها الثقافية والاجتماعية التي نراها عليها اليوم – هما مجموعة ربيعة بني نزار ومجموعة جهينة.

مجموعة ربيعة: تتكون من أكثر من عشرين فرعاً منهم عبد القيس وأسد وعنزة وبكر وتغلب، ومواطنهم تهامة، وفرقتهم الفتن، وذهبت أعداد كبيرة منهم إلى جنوب مصر، وكانت ربيعة تشكل القوة الضاربة من الجيش الذي أرسله الخليفة المأمون عام 216هـ بقيادة عبدالله بن الجهم لردع كنون ملك البحة، الذي ضاعف من هجماته على جنوب مصر؛ فهزمه وتكاثر العرب من جميع القبائل، وانفتح الباب واسعاً لدخول العرب، مما أدى إلى تكوين ما يمكن أن يسمى بمشيخة ربيعة في وادي النيل، ولم يمض وقت طويل حتى آل إليهم عرش البجة عن طريق الخؤولة[3]؛ وبذلك استطاعت ربيعة أنَ توسع نفوذها باتجاه النيل في اتجاه النوبة قبل نهاية القرن الثالث الهجري؛ حينما اعترف الفاطميون – حكام مصر – بأبي المكارم هبة الله بن أبي عبدالله زعيم ربيعة أميراً على البحر الأحمر، والمريس، ولقب بكنز الدولة، وظل أبناؤه وأحفاده من بعده يتوارثون هذا اللقب، وقد استطاع كنز الدولة أبو عبدالله محمد بن شجاع زعيم ربيعه أن يعتلي عرش دنقلا.

مجموعة جهينة: وتنسب إلى قضاعة وتسكن شمال الحجاز بنواحي ينبع، وكانت تشكل نسبة عالية من جيش عمرو بن العاص عند فتح مصر 641م [4]، وانتشروا ما بين صعيد مصر والحبشة، وتتفق مصادر التاريخ الإسلامي على أن العلاقة بين العرب والمسلمين – كانت مضطربة غير مستقرة قبل إبرام إتفاقية الهدنة المعروفة باسم البقط، والتي كان من نتائجها دخول المؤثرات الإسلامية عبر التجارة والدعوة والهجرة، وغيرها في بلاد النوبة.

ومهما يكن فقد قسم ما كمايكل غرب السودان إلى مجموعتين كبيرتين:

الأولى: المجموعة الجعلية، وهي تقابل المجموعة العدنانية في التقسيم العربي، وسكنوا السودان الشمالي، ويعيشون في الأقاليم النهرية وهم: الجعليون، الميرفاب، الرباطاب، المناصير، الشايقية، الجوابره، الركابية والجموعية، والجمع، ومنها قبائل مقسمة بين النهر وكردفان وهم الجوامعه والقريات والبطاحين[5].

الثانية: المجموعة الجهينة، وهي تقابل قحطان واليمن، وهم يسكنون في مناطق متفرقة من السودان، تمتد من الشرق إلى الغرب، ومنهم من يسكن في إقليم النيل الأزرق والبطانه كرفاعة والشكرية، ومنهم من يعيشون في الجهات الشرقية والوسطى من كردفان قبل مجموعة فزارة ودر حامد، بني جرار الزيادية، البزعة، الشنابلة، المعاليا، ومنهم من انتشروا في كردفان ودارفور مثل البقارة والمحاميد[6]، هذا بالإضافة إلى المجموعات البربرية المستعربة، والوافدة من المغرب، وأهمها هوارة.

انتشار الإسلام:

تعدُّ معاهدة البقط عام 31هـ قد ساعدت على انتشار الإسلام بصورة واسعة، وتوسيع الرقعة الإسلامية في السودان؛ فهي معاهدة حسن الجوار حققت للمسلمين الإطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب، وفتح البلاد للتجارة والحصول على سواعد الإخوة القوية في خدمة الدولة الإسلامية.

نشطت الدعوة الإسلامية في عصر الفونج، واشتدت الرغبة في النهوض بالدين، ونشر العقيدة بين الناس، وكانت أساليب الدعوة ذات الطابع السلمي في أغلب الأحوال، وبينما تستخدم أساليب العنف في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية، كما حدث في جبال النوبة والشلك سكان أعالي النيل[7] – كان للدعاة الوافدين، والتجار دور في نشر تعاليم الإسلام؛ فقد إلتفوا حول رؤساء القبائل، وحببوا لهم الدين، فضلاً عن المصاهرة التي تمت بين المسلمين، وأبناء النوبة، والبجة والزنوج، وبدأت حركة علمية نشطة لتدريس العلوم الإسلامية الشرعية المختلفة،وهي علوم القرآن، والحديث، والفقه، والتوحيد، وعلوم

اللغة العربية، وزاد من تأثير هذه الحركة العلمية الحاجة والرغبة الملحة للتعليم الديني الصحيح، وكيفية تحويل السودان من بلاد كانت خاضعة للمسيحية إلى بلاد إسلامية، أصبح للدعاة أماكن خاصة عندما سمح لهم السلاطين، والملوك ببناء المساجد لتقوم بدورها الديني،والثقافي، والعلمي.

دور العلماء:

حقيقة الأمر أن درجة انتشار تعاليم الأسلام في تلك المرحلة -كانت محدودة كماً وكيفاً، خاصة وأن الرواد الأوائل من الدعاة – وجلهم من التجار والبدو – كانوا ممن تنقصهم الدراية الدقيقة بالفقه الإسلامي، وقد شارك هاتين الفئتين بعض العلماء والمتصوفة، مثل غلام الله بن عائد اليمني، الذي وفد إلى دنقلا من اليمن في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ويروى عنه أنه قرر الإقامة بها؛ لأنها كانت في غاية من الحيرة الشديدة، والضلالة؛ لعدم وجود القرآن الكريم والعلماء بها، فلما حلَ فيها عَمر المساجد، وقرأ القرآن، وعلَم العلوم مباشرة لأولاده، وتلامذته، ولأولاد المسلمين [8].

كما قدم بعد قرن من الزمان الشيخ حمد أبو دنانة صهر الشيخ عبدالله بن محمد بن سليمان الجزولي مؤسس الطريقة الشاذلية بالمغرب، واستقر في قرية سقادي التي تقع غرب المحمية؛ حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه تعاليم النصرانية في حالة انحسار بعد أن وهنت الكنيسة، وتفاقمت الهجرات العربية [9].

وعند قيام سلطنة الفونج في مطلع القرن السادس عشر – أكد ابن ضيف الله هذه الصورة القاتمة للوضع الديني بقوله: »ولم يشتهر في تلك البلاد مدرسة، أوعلم، أو قرآن، ويقال إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركي، وعلم الناس العدة..«[10]

. كما قدم محمود العركي وأنشأ سبع عشرة مدرسة في المنطقة الواقعة بين توتي واليس، ومنهم الشيخ صغيرون الذي قدم إلى منطقة شندي حيث أقطعه السلطان بادي الأول (وكان من مريديه) منطقة الفجيجة فأنشأ مدرسة علمية وقد إزدهرت هذه المدرسة في عهد إبنه الشيخ الزين [11] ،

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) قدم الشيخ ابراهيم البولاد بن جابرحفيد الشيخ غلام الله بن عائد – من مصر إلى دار الشايقية، ودَرَسَ فيها (مختصرخليل ابن اسحق)، وكان أول من أدخله إلى بلاد الفونج، و (رسالة بن ابي يزيد القيرواني)، وعلى يد إخوته عبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم وفاطمة، وغيرهم انتشر المذهب المالكي، وانتشر علم الفقه، والنحو في الجزيرة. وتقاطر العلماء المالكية من مصر، مثل الشيخ محمد القناوي المصري [12]، ثم بعد ذلك قدم الشيخ تاج الدين

البهاري من بغداد، وأدخل الطريقة الصوفية في دار الفونج، ثم قدم التلمساني المغربي على الشيخ ولد عيسى سوار الذهب، وسلكه طريق القوم، وعلمه علم الكلام، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها، وممن أخذوا علوم القرآن على الشيخ محمد بن عيسى ونشروه – تلاميذه الشيخ عيسى ولد كنو، وعبدالله الأغبش، وعبد الرحمن الأغبش، وعنه أخذ علوم القرآن كثير من علماء السودان[13].

وممن أسهم في نشر وتطوير علم التوحيد و دراسته في سلطنة الفونج – محمد بن عدلان الشايقي، الذي يصفه ود ضيف الله بشيخ الإسلام، خاتمة المتكلمين، المجدد للدين. وكان عند حجه لبيت الله الحرام درس علم الكلام والمنطق على الفقيه عبدالله المغربي، عالم المدينة المنورة، وكان يدعو لضرورة معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان، ومن مؤلفاته شرحه الكبير على أم البراهين، وهو بعنوان (حجة العارفين)، ومنها العقيدة الأشعرية تحفة الطالب متناً وشرحاً، وكذلك ممن تميز في علم التوحيد، أرباب الخشن المشهور بأرباب العقائد (ت. 1691م)، الذي الف كتاباً في أركان الإيمان أسماه (الجواهر)[14]، وصنف الشيخ عبدالله بن دفع الله العركي نظمين على كبرى السنوسية، ومقدمات السنوسية، وهو من كبار العلماء، وقد سلك طريق القوم على الشيخ حبيب الله العجمي[15].

الإجازة:

كان علماء مملكة الفونج يحصلون على إجازة، أو إذن قبل الشروع في التدريس، أو الفتوى، وهي بمثابة الدرجة التي تُمنح للطالب وتؤهله للانتقال إلى مرحلة التدريس؛ وذلك من واقع حفظ القرآن الكريم والتجويد وعلوم الفقه واللغة وغيره، ويطلق عليه لقب الفقيه، أو الشيخ، المؤدب، الفقير[16].

فحين وطد الفونج أركان ملكهم توافد عليهم رجال الدين بتشجيع من الملوك، وخرج السودانيون طلباً للعلم في مصر والحجاز، وبانفتاح السودان على المجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب، وازدياد عدد رجال الدين من الفقهاء والمتصوفة – بدأت المرحلة الثانية في مسيرة نشر الإسلام، وعملية التثاقف، والتلاقح التي نجمت عن أول التحام بين العرب، وشعوب المنطقتين في منتصف القرن السابع الميلادي.

التعليم:

بدأ التعليم في عهد الفونج في مؤسسات التعليم التي تقوم بمهمة التدريس في علوم الدين واللغة العربية، وتحمل أسماء مختلفة منها مسجد، جامع، مدرسة، ميدان، وكما هو معلوم كانت الخلوة بحسبانها الوحدة التعليمية الأساسية، أو الخلية التعليمية الأولية التي تطور منها نظام التعليم فيما بعد؛ فهي أكثر الكلمات إطلاقاً في السودان على معاهد

التعليم؛ فهي في اللغة تفيد الإنفراد والوحدة، ولكنها أصبحت مكاناً للتعليم خاصة لحفظ القرآن الكريم، وكتابته في اللوح ليسهل حفظ القرآن، على كل فإن أكثر الأسماء استعمالاً في السودان للدلالة على مكانة التعليم في ذلك العهد المسجد والخلوة(17)، كانت الخلوة تلبي حاجة مجتمع الفونج في بداية تكوينه، والذي كان بسيطاً؛ فقد كان اقتصاد الفونج أغلبه اقتصاداً معيشياً، ولم يكن ذلك الاقتصاد يتطلب أكثر من المعلومات الأولية في القراءة والكتابة، ولكن بتطوير النظام الاقتصادي والسياسي – فيما بعد – ازدادت حاجة النظام إلى كتبة وموظفين وعمال وقضاة؛ لمواجهة الاحتياجات الجديدة التي نشأت بفضل تطور التجارة، وتمليك الأرض، وتوثيق العقود، وقياس الأرض، والفصل في قضايا الميراث والضرائب، وغيرها؛ لذلك كان لابد من إحداث تطور في نظام التعليم عند الفونج؛ حيث تلاحظ في الفترات اللاحقة تطور نظام التعليم من الخلوة الى تعليم أوسط يتم منه تدريس التصوف، كما كان عليه الحال عند المجاذيب في الدامر(18)، أيضاً ازدادت البعثات التعليمية إلى الأزهر والحجاز؛ لتأهيل الكادر من الفقهاء، والقضاة، والمعلمين، والشيوخ الذين بدورهم فتحوا مراكز لنيل العلم من مواقع السودان المختلفة.

لم تكن فرص التعليم متساوية لكل الأبناء والبنات في عهد الفونج؛ فقد كان تعليماً طبقياً، بمعنى أن الآباء الذين كانوا يملكون الرقيق ويستخدمونهم في الزراعة، أو الرعي كانوا لا يحتاجون لأبنائهم في هذه الأعمال؛ وبالتالي يرسلونهم إلى الدراسة في الخلوة؛ وبالتالي كانت فرص هؤلاء في التعليم أكبر.

وهنالك الجانب الآخر الذي يتحدث عن التكافل الاجتماعي الذي كان في عهد الفونج، وقد كان يسمح أيضاً لأبناء الفقراء الراغبين في مواصلة تعليمهم؛ وبالتالي نخلص إلى أن نظام التعليم عند الفونج لم يكن مركزياً، ولم يكن تابعاً للدولة، بمعنى لم يكن للدولة سلطة على الشيوخ بهدف فرض أيدلوجية معينة، أو فكر معين، ويوضح ذلك استقلال العلم والعلماء عن حكام الفونج، وهذا نلمسه في أن سلاطين الفونج لم يلتزموا لمعلمي الخلاوي بتخصيص مرتبات، بل يكتفون بما يقدمه الطلاب، أو آباؤهم من هدايا وهبات، كما كان لشيوخ الخلاوي أراضيهم الخاصة، ولكنهم كانوا يُعفون من دفع الضرائب والعشور [19].

وبهذا استطاع الفقهاء والشيوخ والعلماء في عهد الفونج أن يقدموا إلى السودان نوعاً من التعليم ملائماً لظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ مراعياً خصوصية السودان في المقام الأول؛ وبالتالي كان نظاماً سودانياً أصيلاً فريداً؛ تفاعل فيه الوافد مع المحلي.

كذلك ارتبط نظام التعليم عند الفونج بالإنتاج، ولم يقتصر نظام التعليم على الدراسة فقط، بل كان الطلاب يساهمون في زراعة أراضي الشيوخ، وكان الطالب يملك حق العمل

في أراضي أخرى، أو الاحتطاب؛ لتوفير بعض المال الذي كان يحتاج إليه؛ رغم مجانية الإعاشة والسكن في الخلاوي، كما عرف الفونج التعليم الشامل، ويدل على ذلك ما ورد في كتاب الطبقات (الزيل والتكملة) أن عبدالله ولد صابون كان شاعراً وصايغاً وخياطاً وخطاطاً، وجميع ما يفعله احتساباً لله، ولم يتزوج، وأعطاه شيخه ابنته؛ فامتنع وقال: لا يليق بالعبد أن يأخذ إبنة سيده[20].

كان نظام التعليم عند الفونج مفتوحاً؛ بمعنى أنه لم يكن يعرف الدرجة، أو الشهادة النهائية، بل كان طلاب العلم يتنقلون من شيخ لآخر، ويسعون للمزيد من المعرفة؛ لذا كان نظاماً متعدد المعارف، ومتعدد المستويات، ومتفاوت الخبرات كل بحسب جهده؛ وبالتالي كان يرسخ قيم التواضع، واحترام العلماء والشيوخ؛ مما ساعد على سرعة انتشار التعليم في أنحاء السودان كافة، وساعد أيضاً على انتشار اللغة العربية، والديانة الإسلامية.

وافتتح الرواد من العلماء مراكز لتدريس القرآن الكريم وعلومه، ونشر التعاليم الإسلامية، واختيرت بعض المؤسسات الدينية مثل الخلاوي والمساجد والزوايا كمؤسسات تعليمية بجانب كونها أماكن للعبادة، خاصة وأنها أماكن للتجمعات المختلفة العادات والتقاليد والثقافة، كما في سنار وقرى واربجي ودنقلا وسوبا، هجر سنكات والمجاذيب في الدامر[21] وكانت البيئة العلمية والروحية أمراً جاذباً أدى إلى إنشاء القرى والمدن حول هذه المساجد والخلاوي.

على ضوء ذلك أخذت الحياة العلمية في مملكة الفونج تأخذ الطابع المنظم، وقد أدى الاحتفاء بهذا البعد الروحي والديني للخلوة إلى انتشارها في كثير من بقاع السودان، وظهرت العديد من المدارس الدينية في شمال السودان وكان أهمها: -

- **مدارس دار الشايقية:**

ومنها (مدرسة أولاد جابر) الذي يرجع نسبهم إلى الركابية، وهم أول طلائع معلمي القرآن الكريم وشرحه وتفسيره، وأكثرهم ورعاً وصلاحاً، كما ذكرت الروايات المختلفة أولاد جابر كالطلائع الأربعة أعلمهم إبراهيم، وأصلحهم عبدالرحمن، وأروعهم اسماعيل وأعبدهم عبدالرحيم، وأمهم فاطمة بنت الشيخ صغيرون، ونظيرتهم في العلم والدين[22]، وأكبرهم إبراهيم الملقب بالبولاد، ولد بجزيرة ترنج، وتفقه على يد الشيخ البنوفري حيث درس الفقه والأحوال والنحو، عاد إلى الشايقية عام 1570م، وأسس مدرسة ترنج، ودرس (مختصر خليل بن أحمد)، وتخرج من مدرسته العديد، ومنهم عبدالرحمن أخوه، الذي أنشأ العديد من الخلاوي في كل من كورتي والدفار ودار الشايقية، كذلك يعدُّ أول من وضع لبنة القضاء الشرعي في سلطنة الفونج، وأسهم آخرون من أحفاد أولاد جابر بانشاء

مراكز دينية في أبي حراز والهلالية، وقام أبناء عمومتهم من الركابية بجهد مماثل في حورسي وجبل الحرازة في كردفان، وفي قرية الصبابي التي ربما هاجروا إليها عند قيام مملكة العبدلاب[23].

•مدارس إقليم دنقلا:

أشهرها مدرسة (أولاد سوار الدهب)، الذين يرجع نسبهم إلى البديرية، وجدهم بدير ولد سمره؛ حيث ينتهي نسبه إلى إبراهيم جعل جد قبائل الجعلية، وتتلمذ سوار الدهب على يد أولاد جابر، أنشأ سوار الدهب مدرسة في دنقلا جمعت بين العلم والتصديق، ولهم وجود في كردفان والغبش في بربر، امتد نفوذ سوار الدهب العلمي والديني، وكان حكام الفونج والعبدلاب يلتفون حولهم حباً في علمهم، كما يلتفون حولهم؛ حيث كان لهم هيبة وأهمية في المنطقة[24]، نلاحظ أن نظام التعليم كان متفاوتاً في مناطق دولة الفونج المختلفة، وهذا نتيجة للتفاوت في التطور الاقتصادي والاجتماعي والعلمي في تلك المناطق. أما أساليب التعليم فهي عديدة، منها استعمال التراب والكتابة على الأرض للمبتدئين، ومنها أسلوب التهجي والتلقين لحفظ القران الكريم، ثم طريقة الحفظ بالطريقة الحرفية والنطق والتمييز بين الحروف [25].

وبالتالي اعتمد التعليم في دولة الفونج بشكل أساسي على الحفظ والاستظهار؛ وذلك نتيجة لبساطة التعليم، وسهولة الحياة نفسها؛ لذلك يسهل الحفظ، وعدم انتشار أدوات الكتابة؛ لذلك كان للذاكرة دور كبير في التعويض عن الكتابة، أضف إلى ذلك طبيعة المجتمع الزراعي والرعوي الذي لا يعرف النقد، وطرح الأسئلة، والذي يكره الجمود والرتابة، وعدم البحث النقدي المتواصل ليساعد على الحفظ والقبول بما يرد عن الشيوخ دون مناقشة[26]؛ لذلك كان للشيوخ الهيمنة المطلقة على الحياة الفكرية والثقافية.

وفي العهد السناري لم تكن مراحل التعليم معروفة بمعناها المعروف اليوم، ولكن كان يبدأ في الخلوة والمسجد بحفظ القرآن الكريم، ومعها يلقن الطالب حروف الهجاء ليتعلم الكتابة التي تبدأ مع حفظ القرآن الكريم، وهي مرحلة الخلوة التي تبدأ من سن الخامسة، ثم تاتي مرحلة قراءة أحكام القرآن على فقيه القرآن، أو غيره من الفقهاء، ثم يرتحل من إلى مسجد العلم، أو يبقى في المسجد نفسه إذا كان يدرس به، ويتلقى علوم الدين [27].

نلاحظ أن بداية انتشار الثقافة الإسلامية، أو العلوم الإسلامية في السودان – قد وافقت فترة الركود الفكري التي عمت العالم الإسلامي؛ إذ حصر العلماء جهودهم على العلوم النقلية دون اجتهاد مهتمين بالإيجاز والاختصار، وكتابة الشروح والحواشي لها، كما صادفت تلك الفترة غلبة الطرق الصوفية، وهيمنتها على كثير من مظاهر الفكر الإسلامي[28]، ولكن في القرن الثامن عشر بدأت تنمو حركة تجديد فكري، وظهر العلماء

والشعراء.

ومن العلوم الإسلامية التي نالت بعض العناية علم الكلام أو العقائد – كما تسمى في الطبقات – وكانت دراسة علم العقائد تدور حول (متن السنوسية)، وهي مقدمة في التوحيد من ثلاث مقالات: كبرى وتعرف بعقيدة أهل التوحيد، ووسطى ولعلها ما يسمى بالمرشدة، وصغري وهي (أم البراهين) لأبي عبدالله السنوسي التلمساني المتوفي سنة 598ه – 1480هـ، وقد كتب المؤلف شروحاً مختلفة لهذه المقدمات، ووجد بعضها طريقه إلى السودان[29]؛ وبالتالي كانت العلوم المتعارف عليها في مملكة سنار الأسلامية هي العلوم الدينية، أو العلوم النقلية وهي: علوم القرآن والحديث والفقه و التوحيد علم الكلام، وعلوم اللغة مثل: النحو والصرف، ولكن لم يكن في السودان في ذلك العهد أي نوع من العلوم العقلية موجوداً مثل: الطب والرياضيات والفلسفة والمنطق، وغيرها.

أما تعليم المرأة في العهد السناري – فيبدو أن مركز المرأة الاجتماعي جعل نصيبها محدوداً في العلم والتعليم، ونجد أن هنالك امثلة تثبت أن من النساء من كانت تحفظ القرآن الكريم، مثال الحسنة زوجة الشيخ حمد بن محمد حفظت القرآن وكانت ترتله، وكانت عائشه الفقيرة بنت ولد قدال تعلم القرآن [30]، وكذلك فاطمة بنت جابر التي كانت تدرس القرآن في مسجد إخوتها أولاد جابر، ونلاحظ أنه لم يختصر دورها على تعلم القرآن والعلم، بل كانت المرأة حريصة على افتتاح الكتاتيب والخلاوي، وعلمت بنفسها الطلاب، وتنفق عليهم من كسبها، ولقد أسس السيد محمد عثمان الختم ثلاثة معاهد لتعليم النساء في سواكن، وذلك في الفترة الأخيرة للملكة سنار، والتى استشهد بها الشيخ بابكر بدري عندما بدأ تعليم المرأة في السودان[31].

ظل أهل السودان يقرأون القرآن الكريم تلاوة وحفظاً بروايتي أبي عمر الدوري (ت246ه) عن أبي عمرالعلاء البصري، وورش عن نافع، حتى نافستها رواية حفص، والراجح أن روايتي الدوري وورش قد وفدتا مع الهجرات العربية الأولى للسودان ومع الرواد من العلماء من مصر، وتأثير العلماء القادمين عبر طريق الحج القادم من المغرب، ومن بلاد السودان الغربي [32].

الكتب:

اهتم بعض علماء الفونج بجمع الكتب الدينية، وغيرها، خاصة على أيدي الطلبة المستقرين طلباً للعلم، أمثال عمار عبدالحفيظ الذي أتى بنحو رجلين، أو ثلاثة من الكتب، وكان لإبراهيم بن نصير خزانة كتب، وجمع محمد ولد دوليب كتباً كثيرة منها (شرح الأجهوري)، (الخراشي)، كما اهتم الفقيه حامد اللين بجمع الكتب، وهو أول من أحضر (شرح عبدالباقي علي خليل) في السودان، والشبراخيت علي العشماوي، واشتغل

الشيخ صالح ولد بان النقا، وهو ممن جمع بين طريق القوم، وعلم الظاهر – بتحصيل أنماط مختلفة من الكتب، واستأجر النساخ لينسخوا له كل ما يعثرون عليه من مؤلفات داخل البلاد، فلما فرغ من ذلك أرسل إلى مصر والحجاز في طلب غيرها؛ فملأ من ذلك ست خزانات من كل عزيز عجيب، وغريب نادر، وظلت هذه المكتبة عند ابنه الشيخ إلى أن تبعثرت إبان قتله الملك نمر في أول العهد التركي [33].

كان لهذه الكتب – على قلتها في بلد مترامي الأطراف كسلطنة الفونج – شأن كبير في تبديد شيء من العزلة الفكرية التي فرضتها صعوبة المواصلات من الخارج، وقلة الاتصال بين الأجزاء المختلفة في الداخل، كما قللت من اعتماد الدارسين على قدر ضئيل من المؤلفات الخطية لتتبين لنا الصعوبات التي كانت تحول دون نشر الثقافة العربية بشكل أشمل وأعمق، كما يتضح لنا الدور الذي بذلهُ الفقهاء مهما كانت درجة حصيلتهم العلمية في إرساء تعاليم الإسلام على قواعد سليمة.

ومن الكتب المالكية، والتي انتشرت في المغرب، وبلاد السودان، ووجدت رواجاً في سلطنتي الفونج والفور:

- **الرسالة:**

وهي (رسالة ابن أبي زيد القيرواني)، وهو أبو محمد عبدالله (ت.996هـ)، نزيل القيروان، وإمام المالكية في زمانه، قصده العلماء وأخذوا عنه، وهو يُعدُّ من الكتب المشهورة التي عمت فائدتها سائر الأقطار التي تدين بمذهب الإمام مالك، خاصة المغرب والسودان، وقد كتبت حوله شروح وحواش بعضها في السودان[34].

- **مختصر الخليل:**

لأبي الضياء إسحاق بن موسى المعروف بالجندي (ت.1365م)، من كبار علماء المذهب المالكي بمصر، اعتمد في مختصره على شرح جامع الأمهات لابن الحاجب. ويُعدُّ هذا من أهم الكتب المتداولة في المغرب، وبلاد السودان[35].

- **المدونة:**

وهي مجموعة مسائل تبلغ نحو ست وثلاثين ألف مسألة، جمعها أسد بن الفرات النيسابوري الأصل، وكانت غير مرتبة ولا مبوبة، واشتهرت بـ (الأسدية)، ولاختلاط المسائل في أبوابها عرفت بـ (المدونة المختلطة)، ثم رتبها سحنون وكانت معروفة في السودان[36].

- **شرح المدونة لابن عمران:**

وهو موسى بن عمران بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي (ت.430ه) [37].

- **كتب علم التوحيد:**

يتبع السودانيون مذهب الإمام أبو الحسن الأشعري في عقائد التوحيد، مثل المغاربة، ومنهم انتقلت أشهر كتبهم في علم الكلام الي السودان، ومن رواد علم التوحيد في دولة الفونج المصري محمد القناوي الذي دخل بربر، واربجي، وسنار[38]، وكذلك أبو عبدالله محمد بن يعقوب الحسيني السنوسي، وأشهر مؤلفاته في التوحيد، ومنها العقيدة الكبرى المسماة (عقيدة التوحيد)، و(عقيدة أهل التوحيد الوسطى)، و(عقيدة أهل التوحيد الصغرى)، وتسمى (أم البراهين)، وقد وجدت هذه الرسائل اهتماماً كبيراً من العلماء السودانيين درساً وتدريساً وشرحاً، وممن اهتم بها المضوي محمد بن محمد اكداوي، حفيد المصري محمد القناوي، ووضع عليها أربعة شروح العمدة، الأوسط، الصغير، والحاشية، قال عنها ود ضيف الله: « شأنها يكتبن بمداد الذهب «[39].

العلاقات الخارجية:

ساهم في نشر المبادئ الدينية وازدهار الثقافة الإسلامية في مملكة الفونج – اتصالها الثقافي والديني والتجاري بالبلاد الإسلامية التي هاجر علماؤها وفقهاؤها نحو سنار والتي تتمثل في الآتي:-

الحجاز:

تعدُّ منبعاً ثراً للحركة العلمية والثقافية الدينية؛ ويظهر ذلك في رحلات الحج السنوية، وأهميتها بالنسبة لملوك الفونج؛ فقد كان الحجاج السودانيون يشجعون علماء الحجاز في الرحلة إلى بلاد الفونج، ومن ثم عملت على تذليل الصعاب التي كانت تعترض الحجاج للوصول إلى الحجاز، خاصة في عهد السلطان عجيب المانجلك الذي قام بمجهودات كثيرة، كما قدم الهدايا الثمينة للحكام والعلماء. بالإضافة لذلك نجد أن سلطنة سنار قامت بشراء منازل، خاصة بالحجاج والمسافرين، وجعلتها وقفاً حول المسجد النبوي الشريف وفي مكة المكرمة[40].

كما شارك الملوك في تحسينات عمارة المسجد النبوي، وتزيين القباب والمنارات، وجمع لهذا الغرض قدراً كبيراً من ذهب جبال بني شنقول، ونجد أن هذا الاتصال أمثلة العلاقات الدينية والثقافية؛ حيث هاجر من السودان إلى الأراضي المقدسة عدداً من علماء البلاد لتأدية فريضة الحج، وكذلك وفد إلى السودان العلماء من الحجاز، وأقاموا فيه؛ فكانوا محل حفاوة عندما يحلون بدار السلطنة حتى أن الشيخ عجيب المانجلك تتلمذ على يد الشيخ تاج الدين البهاري[41]، كما كانت الحجاز ملاذاً للفارين من عقاب سلطان الفونج، كما حدث للفقيه عبداللطيف بن الخطيب عمار، كما توجد مجموعة من الشيوخ

الذين دخلوا الحجاز وتتلمذوا على رجال الطرق الصوفية، وأسسوا بعد عودتهم فروعاً لتلك الطرق، فمثلاً الشيخ حمد بن محمد المجذوب الذي أسس فروعاً للطرق الشاذلية في الدامر، وسميت طريقته بالمجاذيب[42]، إن كثيراً من السودانيين كانوا يتلقون العلم في مكة والمدينة، كذلك العلاقات الاقتصادية والتجارية ومدى إسهامها في توثيق الروابط الثقافية، والدينية بين البلدين.

المغرب:

الروابط الثقافية بين الفونج، والمغرب ترجع لفترات طويلة، ويظهر الارتباط الثقافي بين البلدين بصورة بارزة من خلال الإرتباط المذهبي، خاصة في اتباع المذهب المالكي، والذي كان سائداً في كثير من الدول الأفريقية؛ لذلك فإن العامل الروحي والديني هو الذي يطغى على الروابط الثقافية بين البلدين، أسهمت المغرب في دعم الحركة الفكرية في مملكة الفونج من خلال التأثيرات الثقافية التي انتقلت إلى الفونج عن طريق العلماء المغاربة الذين هاجروا إلى سلطنة الفونج، وطاب لهم المقام، واستقروا فيها، ومنهم الشيخ التلمساني الذي قدم على الشيخ محمد ود عيسى سوار الذهب، وعلمه علم الكلام، وعلوم القرآن من تجويد، ورويات ونحوها، أيضاً الشيخ عبدالكافي المغربي الذي تتلمذ عليه الشيخ إدريس ود الأرباب، وعلمه التصوف، ومنهم الشيخ الحاج موسى جد الشيخ حسن ود حسونة، ومنهم الشيخ دفع الله بن مقبل وسعد ود شرشاى[43].

اليمن:

العلاقات بين بلاد اليمن والسودان قديمة، تعدُّ اليمن أول مصدر للثقافة الدينية والصوفية في السودان، ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي؛ فقد ظهر العلماء الذين ساهموا في نشر التعليم الديني في السودان، فكان أحد هؤلاء هو الشيخ غلام الله بن عائد جد الركابية، وقد أسس خلوة بدنقلا، وبنى المساجد، وقام بتعليم القرآن والعلوم، من ذريته مجموعة من علماء الدين نشروا الثقافة في دار الشايقية، وهنالك مجموعة أخرى من العلماء الذين وفدوا من اليمن إلى السودان، منهم الشيخ حمد ولد زروق قدم من حضرموت بأرض اليمن، وسكن الصبابي، والشيخ جبارة، والفقيه جار النبي الذي كان عبداً صالحاً وفقيه[44].

العلاقات الثقافية والدينية بين الفونج وغرب أفريقيا:-

ظهور دولة الفونج ساهم في خلق وتطوير علاقات قوية بين العالم الإسلامي في الشرق الأوسط، والممالك الإسلامية في غرب أفريقيا عبر مملكة الفونج؛ لذلك كانت السلطنة السنارية حلقة اتصال بينهم؛ مما أسهم في نشر الدين الإسلامي، والعلوم الدينية[45].

العراق:

علاقة الفونج ببغداد ترتبط بمجموعة من العلماء البغداديين الذين جاءوا إلى دنقلا لتعليم الناس أمور الدين، ومنهم الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي الذي جاء إلى السودان بدعوه من أحد الحجاج السودانيين، وكان لهذا الشيخ الفضل في دخول الصوفية بلاد الفونج[48].

مصر:

تعدُّ مصر مركزاً للمعرفة والثقافة، والذي يتميز بالطابع العلمي؛ فقد كانت الكتب ترد من مصر إلى سلطنة سنار بحيث امتلأت مكتبات العلماء، والفقهاء الإسلامية – كما ذكرنا سابقاً – كما أمدت البلاد برجال الطرق الصوفية، وعلماء الدين؛ حيث وجدوا فيما قدمه السلاطين من تقدير لرجال العلم عاملاً مشجعاً فضلاً عن تقدير الأهالي لهم؛ ولذلك استقر الكثير منهم في السلطنة(28). وتبلورت هذه العلاقات الثقافية بالقدر الكبير الذي اهتم فيه ملوم الفونج بهجرة الطلاب الوافدين من السلطنة إلى مصر، وإنشاء رواق لطلاب العلم من أبنائهم، وهو ما عرف برواق السنارية في الأزهر الشريف[49].

ارتبط مشائخ الأزهر الشريف بسلاطين الفونج حتى بلغت درجة تبادل الهدايا بينهم، كالسلطان بادي الذي كان على صله بعلماء مصر، ويرسل لهم الهدايا مع مندوبه أحمد علوان؛ حتى أنهم مدحوه بقصيدة، أوردها كاتب الشونه معدداً فيها أمجاد سلطان سنار، ومادحاً كرم السلطان وأفضاله[50].

أيضاً كانت سلطنة الفونج تطلب من مشائخ الأزهر، وعلمائها النظر في الفتاوى التي يصدرها علماء ومشائخ سنار، إضافة إلى أن عيذاب وسواكن كانت تشكلان طريقاً بديلاً، وأمناً أيام الاضرابات التي كانت تحدث في مصر للقوافل التي تذهب إلى الحجاز من الحجاج المصريين، وغيرهم[51].

الطرق الصوفية:

تُعدُّ الطرق الصوفية من العوامل التي أثرت في الحركة الفكرية في السودان؛ فقد انتشر الفكر الصوفي في العالم الإسلامي كرد فعل للاتجاهات السنية المتزامنة للحكام، والملوك الذين كانوا يقهرون الناس باسم الشريعة، وبدأت بالنحو، ثم تطورت إلى علم التصوف، وبدأت تظهر بوادرها منذ الفتنة الكبرى، وقيام دولة بني أمية، واتخذت أشكالاً مختلفة في المعارضة، ومع ضعف وانحطاط وذبول التعليم والثقافة الدينية منذ القرن الخامس عشر نتيجة لتراجع العلوم الفلسفية، والاقتصار على العلوم النقلية والركود والجمود السياسي الذي ساد العالم نتيجة الحروب الصليبية، والحروب الداخلية، بالإضافة للاستبداد السياسي، وفساد الحكام – كل

ذلك دفع بعض الناس ليلتمسوا الخلاص من الطرق الصوفية، وانتشرت في العالم الإسلامي، وأصبح التعليم يعني أساساً دراسة القرآن والتصوف الإسلامي.

جاءت الطرق الصوفية إلى السودان بحكم تفاعل السودان في تلك الفترة مع العالم الإسلامي، والعالم الخارجي - كما ذكرنا سابقا -ودخلت الطرق الصوفية السودان بتنوعها، ولعبت دوراً كبيراً في نشر التعليم والثقافة الإسلامية، كما تفاعلت هذه الطرق مع الواقع والموروثات المحلية والأفريقية، ونتج الإسلام في السودان الذي اهتم بالتسامح، وعدم التزامن والتنوع، والجمع بين الفقه والتصوف، وتعدد المذاهب[52].

من الملاحظ أن الاتجاه السائد في دولة الفونج - عدم التدخل في توجيه الحركة الفكرية لمصلحة مذهب ديني معين، وإنما فتح المجال للجميع من العلماء والفقهاء والمتصوفه دون تدخل في تأييد مذهب على آخر أو طريقة، بل ترحب وتكرم الجميع، وتسمح بكل نشاط ديني إسلامي ما لم يهدد سلطانهم؛ لذا انتشرت مجموعة من الطرق الصوفية إلى جانب العلماء، كما عرفت مذاهب متعددة، منها المذهب المالكي والشافعي.

العوامل التي ساعدت على انتشار الطرق الصوفية في السودان تتلخص في الآتي:

انتشار الطرق الصوفية في البلاد العربية المجاورة للسودان، والتي كان السودان على اتصال ثقافي وعلمي بها، كالحجاز والعراق والمغرب ومصر[53].

- ترحيب ملوك الفونج بهذه الطرق، ومشايخها وتشجيعهم الهجرة للسودان.
- أظهر المشايخ كثير من الصفات التي جعلت الناس يلجأون إليهم؛ فقد كان الملاذ الروحي، والمادي في أغلب الأوقات.

رغبة السودانيين وتشويقهم في الحياة بعيداً عن مزالق السياسة، والحروب، والصراعات القبلية[54].

انتشرت الصوفية في السودان بواسطة الطرق الآتية:

الطريقة القادرية:

من أوسع الجماعات الدينية انتشاراً في البلاد الإسلامية، تنسب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني في القرن الثاني عشر، ثم دخلت إلى إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر، وفي حوالي 1545م عندما قدم تاج الدين البهاري من بغداد عن طريق الحجاز، وأدخل الطريقة إلى السودان بعد إذن من الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وجاء مع داؤود عبدالجليل الحاج سعيد، وأقام في الجزيرة سبع سنوات، سلك طريقه كل من: محمد الهميم عبدالصادق جد الصادقاب، وبانقا الضرير جد اليعقوباب، والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلاب، وعبدالله دفع الله العركي جد العركيين[55].

الطريقة الشاذلية:

وهي منسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (1196-1258م) ولد في شاذلة في تونس، وانتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر، على يد أبي عبدالله محمد بن سليمان الجزولي، والذي تزوجت إحدى بناته من الشريف حمد أبي دنانة، الذي نزح إلى السودان وسكن في المحمية، وذلك سنة 1445م أي قبل الفونج، ثم رسخت دعائمها في أيام الفونج على يد الشيخ خوجلي عبدالرحمن المحسي، ومن بعده الشيخ حمد بن محمد المجذوب (1693-1776م) الذي أسس فرعاً للشاذلية في الدامر وسميت طريقته بالمجاذيب. ولقد انتشرت العديد من الطرق الصوفية في كل أنحاء السودان، وسيطرت على الخاصة والعامة.

وهنالك الطرق الصوفية التي نشأت في السنوات الأخيرة لدولة الفونج، مثل الطريقة الختمية التي أسسها محمد عثمان الميرغني سنة 1793م، والطريقة الإسماعيلية التي أسسها اسماعيل الولي في كردفان 1793م، والطريقة التجانية التي أدخلها محمد المختار عبدالرحمن الشنقيطي، والطريقة السمانية التي أسسها الطيب البشير عام (1800م).

دعا المتصوفة في السودان إلى نشر وتعميق مبادئ العقيدة الإسلامية بطريقه مبسطة، ويعتمدون على إلزام المريدين باتباع منهج معين تعبدي، كما يبدو أنهم لجأوا إلى التلقين، واستعمال الترانيم والطبول في الأذكار في نشر تعاليم الدين الإسلامي وعلومه[56]، كان النزاع بين الصوفية، والعلماء في مملكة الفونج قليل؛ لأن سلطة رجال الطرق الصوفية كانت قوية ومسيطرة؛ ولأن معظم الصوفية في ذلك العهد كانوا يجمعون بين الثقافتين الصوفية والعلمية.

كانت الثقافة الصوفية، أو الجانب النظري للعلم الصوفي بين أفراد هذه الطرق محدوداً، إلى جانب إنحياز العلماء جميعاً في مكان واحد هو مقر الملك في سنار، وقد سبب فشلاً في انتشار العلم بين الناس، وظل التعليم فردياً منحصراً في جهات معينة وقليلة، بمعنى أن الجانب العلمي الصوفي يكون هو واجب الاتباع، أما الجانب العلمي، وجانب المعرفة لنظريات التصوف، فقد يتجلى عند بعض كبار الرؤساء الروحانيين.

فإذا نظرنا في ثقافة هؤلاء الرؤساء قد تحدثوا عن التعرف بالكرامات، وغيرها، ولكنه حديث فلسفة صوفية، وليس منهجاً لحياة روحية، ولعل نجاح الطرق الصوفية في مملكة الفونج كان لتمتع رجالها وشيوخها بقدر كبير من العلم والخلق الديني والورع والزهد والسلطان الروحي، وقد كان للمريدون والأتباع عاملاً مساعداً أيضاً في نجاحه[57]؛ فقد اعتقدوا أن مخالفة الولي قد تعود عليه باللعنة والضرر، وانتشرت البدع والغيبيات بصورة كبيرة، خاصة وأن الثقافة الفقهية كانت ضعيفة، والمعاهد العلمية والمعرفية محدودة؛ فصار الشيوخ يمثلون قوة روحية ذات سلطان عظيم على العامة والملوك. لعبت الطرق الصوفية دوراً كبيراً في حفظ العلوم النقلية وظل المنهج التعليمي المتبع في الخلاوي والمساجد هو أساس المعرفة طوال عهد مملكة الفونج.

كما جسدت الطرق الصوفية قيم الدين في إطار الثقافة الشعبية، ومناهجها في فلسفة وحكم وأشعار الشيخ فرح ودتكتوك؛ لتنزيل قيم الدين في فهم بسيط، وعقلية مجتمع تغلب عليه الأمية. وكان انتشار الصوفية في السودان بصورة أعمق وأوسع من انتشارها في كثير من البلاد التي وفدت منها، لدرجة إنها سيطرت على الحياة الفكرية، وقد ارتبط ذلك بحالة الجهل والأمية التي يعيشها المجتمع السوداني، كذلك صعوبة الاتصال بين أطرافه؛ فقد كان في عزله فكرية، ولقد كانت هنالك خصومه بين الفقهاء والصوفية، ولكنها كانت أقل في مملكة الفونج؛ وذلك لأن التوافق والتزامن بين دخول الطرق الصوفية والعلوم الإسلامية الأخرى جنباً إلى جنب في عهد الفونج في السودان بخلاف ما هو موجودٍ في البلاد الأخرى؛ فالمعروف أن البلاد الإسلامية تعمقت في العلوم الإسلامية والمعرفية أولاً، ثم الخوض في التصوف؛ ولذلك نجد أن المجتمع السوداني استهوته الطرق الصوفية، وليس لديه من الثقافة الدينية والفقهية في التوحيد، وعلوم الفقه والحديث والسيرة، وغيرها ما يجعله يحكم على الصوفية من وجهة النظر الدينية الإسلامية السليمة، وانعكس ذلك على المجتمع السوداني على المستوى الاجتماعي والسياسي والديني، إضافة إلى أن الكثير من بين قيادات الطرق الصوفية جمع بين علم التصوف والفقه ودفع النجاح الذي حققه المتصوفة الفقهاء ليترسموا خطى رجال التصوف، فجمع العلماء بين علمي الظاهر والباطن؛ حتى صار من المتعزر الفصل بين الوظيفتين، ويظهرذلك جلياً في استعمال كلمة (فكي) للدلالة على الفقيه العالم، والفقير الصوفي في آن واحد، ومهما يكن من شيء فإن الجانب الإيجابي كان انتشار التعليم والثقافة العربية الإسلامية

الخاتمة:

كان للفونج دورٌ بارزٌ في تطور الحركة الثقافية في السودان؛ فهم الذين حسمو حركة الصراع الفكري في السودان لمصلحة الإسلام، وهيأو المناخ الصالح للحركة الثقافية بشقيها الصوفيٍ والعلميٍ، وشجعوا العلماء والفقهاء من جميع البلاد؛ حتى أصبح السودان في وقت وجيز قطراً إسلامياً يحتل مكانه بين البلاد الإسلامية، كما أسس العبدلاب المراكز الثقافية، والرواقات في الحجاز، ومصر؛ لتشجيع طلاب العلم.

ظهر دور الإسلام والثقافة العربية واضحاً في نشأة مملكة الفونج، واعتناقهم للدين الإسلامي وتعاليمه، واهتمامهم بالثقافة العربية؛ مما خلق نوعاً من الترابط والتماسك بين الشعوب، والقبائل في السودان، و أدى هذا التفاعل إلى إعطاء سلطنة الفونج درجة كبيرة من التجانس الثقافي والوجداني والاجتماعي، كما أسهم في وضع اللبنة الأولى لخلق وحدة وطنية وسياسية.

يمثل عصر دولة الفونج أزهى العصور التي ازدهرت فيها مظاهر الحضارة الإسلامية؛ وذلك بفضل اهتمام سلاطين الفونج، والعبدلاب؛ ففي عهدهم اكتملت الوحدة السياسية والإدارية في البلاد، وتشجيعهم العلماء والفقهاء وإكرامهم وتقديرهم؛ فانتقلوا بالمجتمع من التخلف،

والجهل، والبداوة إلى مجتمع يسعى للنماء، والتطور العلمي والديني، وقد ساهمت الطرق الصوفية في نشر بعض المباديء الإيجابية، كالتعاون والاحترام، ومساعدة الآخرين، وسياسة التسامح، والوحدة، والإندماج، ولكنها أصبحت مسئولة عن المظاهر السلبية، كالبدع، والخرافات.

النتائج:

- أصبحت اللغة العربية هي لغة التخاطب المشتركة بجانب اللهجات المحلية.
- أسهمت مدارس العلم التي أنشأها العلماء، والفقهاء الوافدون من الدول الإسلامية، أو السودانيون الذين تعلموا في الأزهر – بدور فاعل في الحياة الفكرية والعلمية.
- ظهرت مظاهر الأثر الإسلامي بين القبائل بارزة في الأخلاق، والعادات، والتقاليد، والإصلاح، والتهذيب.
- ارتبطت سلطنة سنار بانتشار الإسلام، والثقافة الإسلامية والعلمية في السودان؛ فقد كان الإسلام ظاهرة حضارية متكاملة تمكن العلماء من الحركة الفكرية، والعلمية، والصوفية.
- تطورت الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية؛ فنشأت المدن والمراكز.

التوصيات:

- الاهتمام بالروايات الشفاهية، وجمعها كمصادر أساسية، ومهمة في التاريخ الثقافي، والديني لمملكة الفونج.
- لا بد من الدراسة والتحقيق في المخطوطات التي لم يتم فحصها ودراستها.
- دراسة الحياة العلمية في مملكة الفونج، والتركيز على العلماء والفقهاء، ودورهم في الحياة السياسية والدينية

المراجع:

1. عبدالله الطيب: أصداء النيل، دار جامعة الخرطوم للنشر، ب . ت، ص 9 .
2. عبدالله عبدالرحمن الأمين: العربية في السودان، الخرطوم 1965، ص 10.
3. نفسه، ص 13.
4. عون الشريف قاسم: موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن، 6 أجزاء . الخرطوم، ص 13.
5. محمد عوض محمد: السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة 1951م، ص 168.
6. نفسه، ص 114ه .

7. Macmichael H.A: A History of the Arabs in the Sudan Cambridge.1922.11.p
8. مكي شبيكة، مملكة الفونج الإسلامية، معهد الدراسات العليا، القاهرة، د. ت، ص 95 .
9. J.S.Trimingham.1965.Islam in the Sudan.Frankcass. London p.332
10. محمد النور بن ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن، ط5، ص 40 .
11. المصدر نفسه، ص 41.
12. المصدر نفسه، ص 41.
13. المصدر نفسه، ص 99.
14. المصدر نفسه، ص 252-254.
15. يوسف فضل، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، ص102
16. يوسف فضل، ملامح في تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان، ص 33.
17. المرجع نفسه، ص 34.
18. محمد عمر بشير: تطور التعليم في السودان، ترجمه هنري رياض وآخرون، دار الثقافة 970 ص35
19. مكي شبيكة، المرجع السابق، ص96 .
20. السر سيد أحمد العراقي: الحياة الاجتماعية والثقافية في مملكة سنار، مؤتمر جامعة النيلين 2016م
21. مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، ص 124.
22. ود ضيف الله، المصدر السابق،ص 73.
23. محي الدين يحيى النووي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، بيروت 1968، ص 412.
24. نفسه، ص 413.
25. تاج السر عثمان، مرجع سابق، ص، 141.
26. يوسف فضل، مقدمة الطبقات، ص 141.

27. المصدر نفسه، ص 4_5
28. تاج السر عثمان، المرجع السابق ، ص 129.
29. محمد صالح محي الدين: مشيخة العبدلاب وأثرها في تاريخ السودان السياسي، الدار السودانية للكتب – الخرطوم، 1972، ص 265.
30. يحيى محمد إبراهيم: تاريخ التعليم الديني في السودان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1978، ص44، دار الثقافة للطباعة والنشر 1960، ص 57.
31. يوسف فضل، مقدمة في تاريخ الممالك السودانية ، ص 103.
32. عبدالعزيزعبدالمجيد، المرجع السابق، ص 303.
33. أحمد علي الإمام: الخلوه والعودة للخلوه، دارمصحف إفريقيا، الخرطوم 2006م، الطبعة العاشرة، ص 31_33.
34. تاج السر عثمان، المرجع السابق، ص 130.
35. إبن فرحون: إبراهيم بن علي بن محمد، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مامون الجنان، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1996م، ص 115.
36. ودضيف الله، المصدرالسابق، ص 184.
37. إبن فرحون، المرجع السابق، ص 116.
38. ود ضيف الله، المصدر السابق ، ص 102.
39. المصدر نفسه، ص102.
40. عبد العزيز امين عبد المجيد، المرجع السابق، ص 151.
41. محمد فوزي مصطفى: الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم 1972، ص 37.
42. يحيى محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص 45.
43. عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشاتها وحتي العصر الجديث ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر 1953م ، ص 65.
44. ود ضيف الله: المصدر السابق، ص 41.
45. أحمد بن الحاج أبو علي: مخطوطه كاتب الشونه، تحقيق الشاطر بصيلي عبدالجليل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1960،ص 9.
46. محمد فوزي: مرجع سابق: ص 37.
47. محمد الفاتح حسن قريب الله: التصوف في السودان إلى نهاية عهد الفونج، مطبوعات كلية الدراسات العليا، جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى 1987، ص 27 .

48. المرجع نفسه: ص 45 .
49. أحمد الحاج أبو علي، مصدر سابق، ص 29.
50. السير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين واسماعيل النخراوي، القاهرة 1937، ص 277.
51. نعوم شقير، المصدر السابق، ص 138.
52. المصدر نفسه، ص 138.
53. المصدرنفسه، ص 139.
54. يوسف فضل: دراسات في تاريخ السودان وأفريقيا وبلاد المغرب، دار جامعة الخرطوم للنشر 1982م، ص 45.
55. عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق، ص 71.
56. ود ضيف الله ، المصدر السابق، ص 9 .
57. حسن مكي محمد أحمد: الثقافة السنارية المغزي والمضمون، مركز البحوث والترجمة، جامعة أفريقيا العالمية 2005م، ص 54.